

الأخلاق 14 أدب العالم مع طلبته الحصة السابعة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، ولا سهل إلا ما سهلته، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً، فأجعل الحزن سهلاً، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وفهما يا رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأعمالكم، ونفعني الله وإياكم بهذا اللقاء بجاه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الشرفاء مع درس جديد من دروس مادة الأخلاق، ومع كتاب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم لصاحبه الإمام العلامة القاضي بدر الدين ابن جماعة الكناني الشافعي رحمه الله تعالى.

وصل بنا الحديث إلى النوع الثاني عشر، يقول المصنف رحمه الله تعالى ونفعنا بعلومه في الدارين، آمين، أن يراقب أحوال الطلبة في آدابهم وهدبهم وأخلاقهم باطناً وظاهراً. لأن الشيخ أيضاً مربّي. الشيخ مربّي يعني الشيخ كما يعتني بالجانب العلمي، لا بد أن يعتني بالجانب الأخلاقي والجانب التربوي، فلا خير في طالب عالم غير متخلق، فلا بد أن يولي الشيخ لهذا الجانب اهتماماً عظيماً وكبيراً، بل قد يكون اهتمامه بالجانب الأخلاقي والتربوي أكبر وأكثر من الجانب العلمي. قال: فمن صدر منه من ذلك ما لا يليق من ارتكاب محرم أو مكروه، أو ما يؤدي إلى فساد حال، أو ترك اشتغال، أو إساءة أدب في حق الشيخ أو غيره، أو كثرة كلام بغير توجيه ولا فائدة، أو حرص على كثرة الكلام. الآن بدأ يعدد الأخلاق التي لا ينبغي أو التصرفات التي لا ينبغي أن تصدر من طالب العلم أو معاشرته من لا تليق عشرته، أو غير ذلك مما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى في آداب المتعلم.

عرض الشيخ بالنهي عن ذلك بحضور من صدر منه غير معرض به ولا معين له، فإن لم ينته نهاه عن ذلك سرا. يعني حتى إذا شعر الشيخ بأن سلوك هذا الطالب لا يستقيم، خاصة مع انتسابه إلى أهل العلم الشرعي، أو علم أنه قد صدرت منه أشياء لا تليق، فالأصل أن يكون النصح كما كان ينصح النبي صلى الله عليه وسلم: ما بال أقوام... يعني والليبيب من الإشارة يفهم، ينصح الطلبة بدون تعريض، يعني قد يكون مثلاً يلمح للطالب ويلمح ويلمح حتى يعني يكاد جميع الطلبة عرفوا من المقصود بكلام الشيخ. لا يجعلها صائحة عامة. والطالب يعني سيكون لبيباً، سيفهم أن هذا الكلام إنما هو موجه إليه. فإن لم يفهم، وإن لم يستوعب فعلى الأقل ينصحه سرا، لأن النصيحة أمام الملاء فضيحة. ويكتفي بالإشارة مع من يكتفي بها، فإن لم ينته نهاه عن ذلك جهراً، يعني مثلاً هذا الطالب لم يمتثل بالتلميح، ثم لم يمتثل بالتصريح سرا، إذا هذا لا بد أن يسجّره إذا كانت المصلحة تقتضي أن ينصحه جهراً حتى يبتعد عن مثل هذه السلوكيات المشينة أو الأخلاق المسيئة التي قد تسيء للشيخ وطلبته مثلاً، فهذا لا بد أن يصجر، ويغلظ القول عليه إن

اقتضاه الحال لينزجر هو وغيره، ويتأدب به كل سامع. طبعاً هذه في آخر مرحلة، خاصة إذا كانت مثل هذه السلوكيات الصادرة عن هذا الطالب تسيء إلى المؤسسة أو تسيء إلى الشيخ، فهذا لا بد أن يزجر.

قال: فإن لم ينته فلا بأس حينئذ بطرده، والإعراض عنه إلى أن يرجع. يعني إذا كان الأمر وصل إلى حد كبير فلا بأس بطرده، أن يأمره بأن لا يحضر إلى درسه حتى يتوب من فعله، أو حتى يمتثل إلى أوامره، ولا سيما إذا خاف على بعض رفقاته وأصحابه من الطلبة موافقته، يعني حتى لا يتأثر زملاؤه وطلابه به، لأنه بقدر مجالسة تقع المجانسة، والصاحب صاحب. قد يكون هذا الطالب وجوده مصدر قلق وخطر، ومصدر تأثير سلبي على من حوله. وكذلك يتعاهد ما يعامل به بعضهم بعضاً من إفشاء السلام، وحسن التخاطب في الكلام، والتحابب، والتعاون على البر والتقوى، وعلى ما هم بصدد، والحقيقة أن مثل هذه الأخلاق تؤخذ بالسلوك، وبالمعاملة أكثر من القول، ونحن تعلمنا الآداب والأخلاق على مشايخنا بالنظر إليها وملاحظتها فيهم. يعني نحن تعلمنا مثلاً آداب الجلوس وآداب مجالسة المشايخ وآداب التلقي من المشايخ أنفسهم بدون أن يتكلموا، لذلك دائماً نقول: دعني أرى فيك الأخلاق ولا تحدثني عنها.

وبالجملة، فكما يعلمهم مصالح دينهم لمعاملة الله تعالى، يعلمهم مصالح دنياهم لمعاملة الناس، لتكمل لهم فضيلة الحالتين. نحن يعني نذهب إلى مشايخنا خاصة مشايخنا الحكماء والفقهاء نستشيرهم في أمور ديننا ودنيانا، يعني حتى إن كان هناك مثلاً أمور عائلية أو أمور شخصية أو أمور تتعلق بحياتنا العملية الدنيوية، نذهب إلى مشايخنا ظناً منا فيهم أن الله سبحانه وتعالى يلهمهم حسن الجواب، حتى وإن كانوا مثلاً غير متمكنين في المسألة التي أنا سأستشيرها فيهم، ولكن نرجو من الله ونعتقد فيهم الصلاح، ونعتقد فيهم الفتح.

النوع الثالث عشر أن يسعى في مصالح الطلبة وجمع قلوبهم ومساعدتهم بما تيسر عليه من جاه ومال...

قدرته على ذلك، وسلامة دينه، وعدم ضرورته، فإن الله تعالى في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، يعني الشيخ. التحنن والتودد والرفق أيضاً إذا رأى أن هذا الطالب يستحق إلى بعض المال، وكان هذا الفقر، وكانت هذه الحاجة عائقاً وحائلاً بين الطالب وبين طلب العلم، فإذا كان الشيخ ميسور الحال، أو يعلم من هو ميسور الحال، يعني يُكرم ذلك الطالب حتى يعينه على طلب العلم. ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه حسابه يوم القيامة، لا سيما إذا كان ذلك إعانة على طلب العلم الذي هو أفضل القربات.

يعني مرة سألنا شيخنا: يا مولانا، لماذا كل هذا الإكرام وكل هذا التودد؟ فقال لنا: كما تصرف معنا مشايخنا، نحن نتصرف مع طلبتنا. يعني كما أحسنوا إلينا، نحن نحسن إليكم. وإذا غاب بعض الطلبة أو ملازمي الحلقة زائدًا على العادة، سأل عنه، وعن أحواله، وعن من يتعلق به، فإن لم يُخبر عنه بشيء أرسل أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل. فإن كان مريضًا عاده، وإن كان في غم خفف عنه، هذا من حسن العلاقة بين الطالب وبين الشيخ. وإن كان مسافرًا تفقد أهله ومن يتعلق به، يعني قد تكون مكاملة واحدة من الشيخ كي يطمئن على الطالب ترفع معنويات الطالب، وتزيده في محبته لشيخه، وتزيده في حرصه على العلم وملازمة المشايخ. كل هذه الأخلاق الطيبة تعين الطالب على طلب العلم.

قال: وتعرض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن، وإن كان فيما يحتاج إليه فيه إعانة، وإن لم يكن شيء من ذلك تودد إليه، ودعا له. وأعلم أن الطالب الصالح أعود على العالم بخير الدنيا والآخرة. من أعز الناس عليه، وأقرب أهله إليه. وكذلك كان علماء السلف الناصحون لله ودينه يلقون شبك الاجتهاد لصيد طالب ينتفع الناس به في حياتهم ومن بعدهم، لأن العلاقة التي بين الطالب وبين الشيخ هي علاقة أخروية لله وفي سبيل الله، وهي محبة لله ومحبة في العلم.

إن العلاقة بين الطالب وبين الشيخ تكون أمتن من علاقة ذلك الطالب بأقربائه، لأن الذي بين الطالب وأقربائه دم، بل قد تكون هناك نفور في الطباع وفي طريقة المعاملة، فالذي يربط الطالب بالشيخ أقوى وأمتن في الدنيا والآخرة. قال: ولو لم يكن للعالم إلا طالب واحد ينتفع الناس بعلمه وعمله وهديه وإرشاده لكفاه. النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمُر النعم"، أو كما قال في بعض الروايات الأخرى صلى الله عليه وسلم. فالعبرة ليست بالكم، إنما العبرة بالكيف. قال: لكفاه ذلك الطالب عند الله تعالى، فإنه لا يتصل شيء من علمه إلى أحد فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر.

يعني المهم أن يتخرج طالب واحد يواصل المسيرة ويواصل ذلك السند المتصل إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فإنه لا يتصل شيء من علمه إلى أحد فينتفع به إلا كان له نصيب من الأجر، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". وأنا أقول: ولما قال "ولد صالح"، هذا الولد يمكن أن يكون ولدًا حسيًا أو معنويًا. حتى الطالب الذي نهل وانتهل من علم الشيخ يعتبر ولدًا، يعني ولدًا معنويًا، بل قد تكون هذه البنوة المعنوية أقوى عند الله يوم القيامة من البنوة الحسية.

وأنا أقول: إذا نظرت وجدت معاني الثلاثة موجودة في معلمي العلم. صدقة جارية، وذلك العلم هو من باب الصدقة الجارية التي يستمر نفعها وأثرها إلى يوم القيامة، أو علم ينتفع به، وهذا حاصل، أو ولد صالح يدعو له، كما كنا نذكر آنفًا. أما الصدقة فإقراؤه إياه العلم، وإفادته إياه، ذلك العلم هو زكاة وصدقة، يعني كما أن الميسور الغني حسًا يتصدق بماله، فإن العالم يتصدق بعلمه. ألا ترى إلى

قول النبي صلى الله عليه وسلم في المصلي وحده: "من يتصدق على هذا أي بالصلاة معه لتحصل له فضيلة الجماعة"، ومعلم العلم يحصل للطالب فضيلة العلم التي هي أفضل من صلاة الجماعة، أو من صلاة في جماعة، وينال بها شرف الدنيا والآخرة.

وأما العلم المنتفع به فظاهر، لأنه كان سبباً لإيصال ذلك العلم إلى كل من انتفع به. وأما الدعاء الصالح له، فالمعتاد المستقرأ على السنة أهل العلم والحديث قاطبة من الدعاء لمشايخهم وأئمتهم. نحن تعودنا كما ندعو لأبائنا وأمهاتنا، ندعو لمشايخنا، وبعض أهل العلم يدعون لكل من يذكر عنه شيء من العلم، وربما يقرأ بعضهم الحديث بسنده، فيدعو لجميع رجال السند.

فَسُبْحَانَ مَنْ اخْتَصَّ مِنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ بِمَا شَاءَ مِنْ جَزِيلٍ عَطَانِهِ. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا متصلين بالعلماء الذين سندهم متصل بخير خلق الله أجمعين. نكتفي بهذا القدر. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.